حِفْظُ الله تعالىٰ لهذا القرآن العظيم

مِن التحريف والتبديل والزيادة والنقصان

إلىٰ يوم الدين

وإثباتُ ذلك بوجوه من الأدلة الموجِبة لليقين

الإمام الشيخ

عبد الله سراج الدين

رحمه الله تعالى ورضي عنه

هذا البحث مقتبس من كتاب

(هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان)

من الصفحة ٢٣٥ حتى الصفحة ٢٥٢

للشيخ الإمام

عبد الله سراج الدين الحسيني

بناءً على توجيهات ولده

المهندس الشيخ

محمد محيي الدين سراج الدين

رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

ويمكنك تحميل هذه الأبحاث القيّمة

وتحميل جميع كتب الشيخ الإمام

من موقعه الرسمي والوحيد

WWW.SRAJALDEN.COM

قسم: كتب الإمام

تحميل كتب الإمام وتحميل أبحاث مختارة

مدير الموقع:

الشيخ عبد الله محمد محيي الدين سراج الدين

حِفْظُ الله تعَالَىٰ لِهَذا القُرآن العَظِيْمِ مِنَ التَّحْرِيْفِ والتَّبْدِيْلِ وَالزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ إلىٰ يوم الدين وإثْبَاتُ ذلك بوجوه من الأدلة الموجبة لليقين

لقد تكفَّل سبحانه وتعالىٰ أن يحفظ هذا القرآن الكريم ، من التبديل والزيادة والنقصان إلىٰ يوم الدين ، وذلك ثابت قطعاً بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية :

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ فأخبر سبحانه في هذه الآية الكريمة عن أمرين عظيمين :

الأول : أنه سبحانه هو الذي أنزل هذا الذكر ـ أي : القرآن الكريم ـ ولم يَنزل من عند غير الله تعالىٰ ، والمعنىٰ : أن هذا القرآن هو من عند الله تعالىٰ قطعاً لا من عند غيره ، لأنَّ غير الله تعالىٰ لا يقدر علىٰ الإتيان به ، ولا يستطيع أن يأتي بمثله نصَّاً ، ولا إعجازاً ، ولا إحكاماً لآياته ، ولا أحكاماً لشريعته ، ولا إخباراً عن المغيّبات ، ولا عن العوالم العلوية والسفلية ، ولا إحاطةً ببعض تلك العلوم والمعارف التي جاء بها هذا الكتاب الكريم والقرآن العظيم ، فإعجاز هذا الذكر الذي ذكر الله تعالىٰ فيه ما يُعجز

الإنس والجن عن الإتيان بمثله؛ دليل علىٰ أنه حقاً ليس كلام مخلوق؛ بل هو كلام الله تعالىٰ الخالق؛ أنزله علىٰ رسوله سيدنا محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، ولذا قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ أي: لا غيرنا. لأن غير الله تعالىٰ لا يستطيع ذلك.

الثاني: الذي أخبرت عنه الآية الكريمة هو قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

والمعنىٰ: أنه سبحانه الذي أنزل هذا القرآن الكريم هو تكفَّل أن يحفظه من التلاعب فيه ، والزيادة والنقصان ، فكما يجب الإيمان قطعاً بأن هذا القرآن أنزله الله تعالىٰ ، يجب أيضاً الإيمان قطعاً بأن الله تعالىٰ هو حافظ لهذا القرآن قطعاً.

وهذا من خصائص القرآن الكريم ، فإن الله تعالىٰ لم يتكفَّل بحفظ أيِّ كتاب أنزله علىٰ رسله السابقين.

فلم يتكفَّل بحفظ التوراة ولا الإنجيل ولا الزبور وغيرها ، بل وكَّل حفظها للربَّانيِّين والأحبار:

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۖ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ أي: يحكمون بذلك ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ الآية.

فلقد استحفظهم الله تعالىٰ إيَّاها ، فما استطاعوا أن يحفظوها من الزيادة والنقصان والتحريف.

أما هذا القرآن العظيم فقد تولَّىٰ الله تعالىٰ حفظه حيث قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ فلم ينله تبديل ولا تحريف ،

ولا زيادة ولا نقص ، ولن يناله ذلك أبداً ، لأن الله تعالىٰ الحفيظ العليم هو تولَّىٰ بنفسه أن يحفظه ، وشَتَّان بين حفظ الخالق وحفظ المخلوق .

ومن ثَمَّ قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ .

فمن هذه الآيات الكريمة يتضح للعاقل وضوحاً جليَّاً ، أَنَّ هذا القرآن هو مصون عن عبث العابثين ، وتلاعب المتلاعبين ، محفوظ من التحريف والتبديل ، والزيادة والنقص ، أبداً إلىٰ يوم الدين .

وهذا أمر يجب الإيمان به جزماً ، والاعتقاد به قطعاً ، لثبوت ذلك بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة :

الدليل الأول : قوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ فلو جرىٰ علىٰ هذا القرآن تبديل أو تغيير ، أو زيادة أو نقص ، لما صَحَّ الخبر في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ ولَمَا صَدق الله تعالىٰ وعده بالحفظ لهذا القرآن العظيم ، وتعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً .

فإن الله تعالىٰ لا يُخلف وعده ، وإنَّ خبره صادق محتَّم الوقوع ، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ ؟ ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ ؟ فإنه سبحانه لا يكذب خبره ، ولا يتخلَّف وعده ، ولا تُنقض كفالته .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ هو كفالة من الله تعالىٰ موثَّقة ، وخبر مؤكد ، ووعد محتَّم ، يعلم ذلك من تدبَّر ، قال تعالىٰ : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

الدليل الثاني: قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

فلو أنه جرىٰ علىٰ هذا القرآن العظيم تبديل، أو زيادة أو نقص، لكان ذلك منافياً ومعارضاً لقوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ وذلك لأن الله تعالىٰ أخبر في هذه الآية أنَّ البَاطل لا يأتي هذا القرآن، ولا يتسرَّب إليه، لا في نصوصه، ولا في معانيه، فهو لا يُعارض ولا يناقض، ولا يزاد فيه ولا ينقص قطعاً، لأن الزيادة فيه هي باطلة؛ باعتبار أنها ليست منه، وإن النقص منه هو أيضاً باطل؛ لأن فيه إبطالاً لما هو من القرآن حقاً دالاً علىٰ حق.

فقوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ دليل صريح علىٰ صيانته وحفظه من التلاعب والزيادة والنقص، فإن الخبر القرآني لا يتخلَّف ولا يتبدَّل.

الدليل الثالث: قوله سبحانه ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ الآية الكريمة.

فقد أمر الله تعالىٰ النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أن يقول للناس: أُوحِي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به أيها الناس، أي: الذين بَلَّغْتُكم وشافهتكم في قرني ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ أي: وأنذر به كلَّ مَنْ بلغه هذا القرآن إلىٰ يوم القيامة، ومعنىٰ ذلك: أن الله تعالىٰ أمر رسوله الكريم صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أن ينذر بهذا القرآن الكريم أوَّل هذه الأمة، ووسطها، وآخرها، علىٰ حدٍّ سواء، ولذلك كان يقول صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «من بلغه القرآن فكأنما شافهتُه به

ثم يقرأ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾»[1].

فقد جعل الله تعالىٰ القرآن الكريم حجةً لرسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم علىٰ جميع العالم، وبلاغاً عنه لكافَّة العباد إلىٰ يوم المعاد، فإنه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم صاحب الرسالة العامَّة إلىٰ جميع الثقلين، إلىٰ يوم القيامة، ولذلك اقتضت حكمة الله تعالىٰ أن يبقىٰ كتابه الذي أنزله الله تعالىٰ عليه، يبقىٰ محفوظاً إلىٰ يوم الدين، لتقوم الحجة علىٰ العباد، وليهتدوا به إلى سبيل الرَّشاد، فيبلِّغَهُ آخر هذ الأمة كما بلَّغه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لأولها.

فلو جاز أن يجري عليه تحريف أو زيادة أو نقص، لما تحقَّق إنذاره صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لِمَنْ يأتي من بعده، كما أنذر الذين في عصره، في حين أن الآية الكريمة تخبر بإنذاره صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لمن في عصره ولمن بعده علىٰ حدٍّ سواء.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ أي: وقل لهم: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾.

فأكبر شاهدٍ شهادته هي أكبر من كل الشهادات بأن محمداً رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم هو الله العلي الكبير، الذي أعلن شهادته بأن محمداً رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، في الآيات التكوينية: السماوية والأرضية، والشجرية والمائية،

---

(١) رواه أبو نعيم والخطيب وابن مَرْدُوْيَهْ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وروىٰ ابن أبي شيبة وابن المنذر وغيرهما نحو ذلك عن محمد بن كعب القرظي.

والطعام والشراب ، وغير ذلك ، وهي المعجزات التي أجراها الله تعالىٰ علىٰ يديه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، شهادةٌ له بأنه رسول الله تعالىٰ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، ومِنْ تلك الآيات السماوية: انشقاق القمر وإمطار المطر ونحو ذلك.

كما أنه سبحانه أعلم عباده بشهادته أن محمداً رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في آياته القرآنية:

قال الله تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ ﴾ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، فهذا معنىٰ: ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ ﴾ الآية.

الدليل الرابع: قوله تعالىٰ: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ ﴾.

ففي هذه الآية الكريمة بيَّن الله تعالىٰ أن إنزال هذا القرآن هو بالحق ، وأنه قد نزل بالحق ، فهو الحق الموجب لليقين ، والموجب للثقة كل الثقة به ، وبما جاء به ، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ ﴾ الآية.

وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ فهو الحق الموجب للطمأنينة والثقة به ، وبما نزل به ، بلا شك ولا ارتياب.

فلو جاز علىٰ هـذا القرآن تحريف أو زيادة أو نقص، لأدَّىٰ ذلك إلىٰ ذهاب الثقة به، ولأدىٰ ذلك إلى عدم الإيمان الجازم بما جاء به.

وكيف لا يوثق به ولا يقطع جزماً بما جاء به ، مع أن الله تعالىٰ بيَّن لعباده أن هذا الكتاب بجميع آياتِهِ هو الحق الموثوق بحقيته ،

والمقطوع بحقيقته ، لا يتطرق الباطل ولا الخَلَل إلىٰ جانب من جوانبه كما قال تعالىٰ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

فَإنَّ فحوى هذه الآية ونصَّها يناديان العقلاء بأن الثقة كل الثقة ، واليقين كل اليقين ، والحق كل الحق؛ ذلك كله في هذا الكتاب العزيز الذي لا يجد الباطل إليه سبيلاً.

فلو جرىٰ عليه تحريف أو زيادة أو نقص ، لذهبت الثقة به ، واليقين بما نزل به ، وهما أمران ثابتان بنص ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ الآية.

أما ذهاب الثقة بالمزيد: فالأَمْرَ بَيِّن ، لأنه ليس من كلام الله تعالىٰ بل هو كلام مفترىً.

وأما ذهاب الثقة بالمزيد عليه: فإن العاقل يقول: لعلَّ في هذا الأصل زيادة أيضاً ، فما يُدرينا أنها كلها أصل؟.

وأما ذهاب الثقة به ـ القرآن ـ حالة النقص منه: فذلك لأن بين الأصل المنقوص والشيء الناقص منه ارتباطاً في المعاني والأحكام ، والإحكام والأخبار ، وغير ذلك من المناسبات المحكمة.

فلو جرىٰ عليه النقص لأدَّىٰ ذلك إلىٰ عدم الثقة بالناقص والمنقوص منه ، فلا يكون أحد من المسلمين علىٰ ثقة بدينه لاحتمال نسخ بعض الصلوات أو تغيير أوقاتها ، أو الزيادة عليها ، أو نسخ للزكاة ، أو نسخ مقاديرها ، أو نسخ الصيام ، أو الزيادة فيه، أو بتبديله بغيره، أو نسخ الحج ، أو تحليل بعض المحرمات؛

كالخمر والميسر ونحوهما من المحرمات ، أو تحريم بعض أنواعٍ من الحلال . . .

وبذلك لا يكون أحد من الناس علىٰ عبادة إلاَّ هو علىٰ شكٍ منها ، ولا يُحجم عن حرام إلا وهو متشكِّك ، فأين الإيمان والجزم بشرع الله تعالىٰ ـ نعوذ بالله من ذلك ـ وحينئذ لا يمكن الإيمان الجازم والحالة هذه إلا ببعثة نبيّ يبعثه الله تعالىٰ يُبيِّن للناس ما نقص من هذا القرآن أو ما زيد فيه .

وكيف يكون ذلك وقد بين الله تعالىٰ في كتابه أنه لا نبيَّ بعد سيدنا محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بل هو خاتم النبيين : قال الله تعالىٰ : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ .

فهو سبحانه يَعلم بعلمه القديم الذي لا يتبدل ولا يتغير ، أن ختم النبوات لا يليق به إلا محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، ولذا قال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : «وأنا خاتم النبيين ولا نبيَّ بعدي» وهذا حديث متواتر عنه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

ولذلك نرىٰ أن الكتب السماوية السابقة لما كانت في معرض التحريف والزيادة والنقص ، اقتضتْ حكمة الله تعالىٰ أن يتابع ويوالي بين بعثة الأنبياء ، بحيث ما يذهب نبيّ إلا بعث الله تعالىٰ نبياً آخر ، وربَّما اجتمع في زمان واحدٍ عدة من الأنبياء :

قال الله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾ وذلك لأجل أن يُبيِّنُوا للناس ما نُزِّل إليهم من ربهم ، ويُبعدوهم عن الشك في دينهم ، بحيث يكونون علىٰ يقين في كتابهم وشريعتهم ،

وبذلك تقوم حجة الله تعالىٰ علىٰ العباد ، قال تعالىٰ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾.

فأما هذا الكتاب العزيز الذي جاء به سيدنا محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم من عند الله تعالىٰ ، فهو باقٍ إلىٰ يوم القيامة ، محفوظ مصون عن التغيير والتبديل ، والزيادة والنقص ، لأن رسالة سيدنا محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم عامَّة ، باقية خالدة ، ليستْ خاصة لأقوام معينين ، ولا لأزمنة خاصة.

فها هنا أمران عظيمان هامَّان يجب الانتباه إليهما ، وهما متلازمان لا ينفكان عن بعضهما.

الأول: عموم رسالته صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم إلىٰ جميع الثقلين إلىٰ يوم الدين.

الثاني: حفظ كتابه العزيز النازل عليه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وإبقاؤه مصوناً محفوظاً من التلاعب إلىٰ يوم الدين.

فالطعن في أحد هذين الأمرين هو طعن في الأمر الآخر ، لأنهما مرتبطان ببعضهما ، فكما أنَّ عموم رسالته صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ثابت بالنصوص القطعية:

نحو قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

وَقَوْلِهِ تَعَالىٰ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ الآية.

كذلك أيضاً حِفْظُ الكتاب النَّازل عليه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ثابت بالأدِّلة القطعية.

الدليل الخامس: قول الله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ الآية.

لقد ذكر الله تعالىٰ التوراة النازل علىٰ موسىٰ عليه السلام بالمدح والتعظيم، ثم ذكر الإنجيل الذي أَنْزل علىٰ عيسىٰ عليه السلام بالمدح والتعظيم.

فقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ الآية.

وقال سبحانه: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ الآية.

ثم ذكر سبحانه هذا القرآن الكريم، وبيَّن منزلته من بين الكتب السماوية، ورفعة رتبته علىٰ جميع الكتب السماوية قبله، وأنه المهيمن علىٰ جميعها فقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ الآية.

فقد أخبر سبحانه عن رتبة هذا الكتاب العزيز بالنسبة لجميع الكتب قبله، بأنَّه مُصَدِّق لما جاءت به من عند الله تعالىٰ؛ وأنه المهيمن علىٰ جميع الكتب قبله، بمعنىٰ: أنه الأمين المؤتمن

عليها ، والحَكَم الشاهد بصدق ما جاء فيها من عند الله تعالىٰ.

قال الإمام البخاري رحمه الله تعالىٰ في (صحيحه): باب كيف نزل الوحي ، وأول ما نزل:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: المُهَيْمِنُ: الأمين ، والقرآن أمين علىٰ كل كتاب قبله. اهـ.

فهذا القرآن الكريم هو الأمين الحكم علىٰ كل كتاب قبله ، يُحقّ ما فيه من حق ، ويبطل ما حُرِّف منها وأدخل عليها من باطل.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: المهيمن: الشاهد.

وفي رواية عنه فَسَّر المهيمن هنا بمعنىٰ: الحاكم ـ وكلها متقاربة ومتلازمة.

فهذا القرآن هو الأمين علىٰ الكتب قبله والشاهد والحاكم.

فإذا كان موقف القرآن مع الكتب قبله ، أنه هو الأمين عليها والحاكم علىٰ ما فيها ، فلا يمكن أن يجري عليه تحريف ولا تبديل ، ولا زيادة ولا نقص كما جرىٰ علىٰ الكتب قبله ، لأنه لو جرىٰ عليه تبديل أو تحريف ، أو زيادة أو نقص لاحتاج إلىٰ أمين آخر ، وَحَكَمٍ آخر يحكم علىٰ ما فيه. هذا من وجهٍ.

ومن وجهٍ آخر نقول: إذا جاز علىٰ هذا القرآن تحريف أو تبديل ، أو زيادة أو نقص ، فإنَّ الله تعالىٰ يكون قد نصب علىٰ كتبه السماوية السابقة أميناً غير مضمون ، وحكماً غير مأمون. تعالىٰ الله الحكيم العليم عن ذلك علواً كبيراً ، بل إن في جعل الله تعالىٰ هذا القرآن الكريم مُهيمناً علىٰ الكتب قبله وأميناً وحَكَماً عليها ، إنَّ في

ذلك شَهادة من الله سبحانه بضمانة هذا القرآن العزيز ، وأمانته ، وحفظه من التلاعب والتبديل ، والزيادة والنقص.

ولذلك حُقَّ له أَنْ يكون مُهيمناً علىٰ الكتب السماوية قبله ، حكماً عليها ، وشاهداً أميناً ، يُحق ما فيها من حق ، ويُبطل ما حرّف أو زيد فيها من باطل.

الدليل السادس: إن هذا القرآن الكريم قد خصَّه الله تعالىٰ من بين سائر الكتب الإلٰهية بالإعجاز ، فَإن جميع الكتب الإلٰهية هي كتب دعوة العباد إلىٰ الله تعالىٰ ، وبيان ما فيه سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة.

وأما هذا القرآن الكريم فهو كتاب دعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، وبيان ما فيه سعادة الإنسان وصلاحه ، وفلاحه ونجاحه في الدنيا والآخرة ، وأيضاً فهو كتاب إعجاز وحجة وبرهان ، فهو كتاب دعوة وحجة معاً لا ينفكَّان ، ففيه الدعوة والبيان القائمان علىٰ الإعجاز والبرهان ، علىٰ مدىٰ العصور وامتداد الأزمان.

ولذلك كانت معجزة القرآن الكريم وحجته هي أكبر المعجزات وأقوىٰ الحجج.

هي أكبر المعجزات التي شهد الله تعالىٰ بها وأعلنها لعباده ، وأشهدهم إياها بأن سيدنا محمداً صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم هو رسول الله ، وهي أكبر معجزة أيَّده الله تعالىٰ بها ، وأبقاها حُجةً له علىٰ جميع العالمين إلىٰ يوم الدين.

روىٰ الإمام البخاري وغيره ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «ما مِنَ الأنبياء نَبيٌّ إلاَّ

أُعطِيَ من الآيات ما مِثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أُوتيته وحياً أوحاه الله تعالىٰ إليَّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة» .

قال المحققون من العلماء: المراد من هذا الحديث أن معجزات الأنبياء السابقين صلوات الله تعالىٰ علىٰ نبينا وعليهم أجمعين قد انقرضتْ بانقراض أعصارهم ، فلم يُشاهِدْها إلاَّ من حضرها ، وأما معجزة القرآن الكريم فهي باقية مستمرة إلىٰ يوم القيامة ، وإنَّ خرقه للعادة ، وإعجازه في أسلوبه وبلاغته في إخباره بالمغيبات ، وفي أحكامه وتشريعه ، وحِكَمه وعلومه ، ومعارفه ومعانيه ، وعجائبه التي لا تنقضي ، وحججه التي لا تُعارض ولا تناقض ، كلُّ ذلك مستمر ، فلا تمرّ في عصر من الأعصار إلاَّ ويظهر فيه من عجائبه ، ومما أخبر به القرآن الكريم أنه سيكون .

فخرقه للعادة بتلك الوجوه المتعددة وبغيرها : يدل علىٰ صحة دعواه ، وصدق الذي أُنزل عليه صلوات الله تعالىٰ وسلامه عليه ، وأنه رسول الله تعالىٰ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

هذا . ومن وجهٍ آخر فإن المعجزات الماضية التي جرتْ مؤيدةً للأنبياء السابقين ، كانت حسيَّة تُشاهَد بالأبصار كناقة صالح ، وعصا موسىٰ ، وإحياء الموتىٰ علىٰ يد عيسىٰ علىٰ نبينا وعليهم الصلاة والسلام .

وأما معجزة القرآن الكريم فإنها تُشاهَد بالبصر والبصيرة ، فيكون من يتبعه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أكثر ، لأن الذي يُشاهَدُ بعين الرأس ينقرض بانقراض مُشاهِده ، وأما الذي يُشاهَدُ بعين

البصيرة ويُشهَد بنور العقل فهو باقٍ ، يُشاهده ويشهد به كل مَنْ جاء إلىٰ يوم القيامة ؛ من العقلاء وأولي البصائر ، قال تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ الآية ، وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

فإنه كلام معجز لا يقدر أحد أن يأتي بمثله ، ولا بسورة من مثله ، يشهد بذلك كل ذي عقل ورويَّة.

وبناءً علىٰ ذلك فلا يمكن أن يُزاد فيه أو ينقص منه ، لأن المزيد فيه ليس بمعجز ، والناقص منه يخلّ بإعجاز الباقي ، وَيُخلّ بتركيبه وأسلوبه ومناسباته ، وبذلك يخرج عن كونه معجزاً ، حجة باقية إلىٰ يوم الدين ، كما أخبر عن ذلك رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في الحديث المتقدم.

وإنَّ صفة الإعجاز هي صفة ذاتية للقرآن الكريم ، ملازمة له ، من المستحيل أن تنفكَّ عنه ، كما أن صفة العربية ذاتية ملازمة للقرآن الكريم لا يتصوَّر أن تفارقه.

فكما أنَّ الله تعالىٰ جعل القرآن عربياً قال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فلا يمكن تجريده عن العربية ، كذلك جعل القرآن معجزاً فلا يمكن تجريده عن الإعجاز ، ولا يُتصوَّر القرآن بحالٍ من الأحوال غير معجز ، كما لا يُتصوَّر القرآن بحالٍ من الأحوال غير عربي قطعاً.

وهذا الجعل المتقدم ذِكْره ليس تخليقياً ، بل هو جعل التقدير والتصيير ، فإن القرآن الكريم غير مخلوق أصلاً ووصفاً.

ومن هذا كله يتبين للعاقل جلياً أنه لا يمكن أن يجري علىٰ هذا

القرآن الكريم تحريف أو زيادة أو نقص ، فإنه لو أمكن أن يجري ذلك لكانت هذه المعجزة الكبرىٰ التي أبقاها الله تعالىٰ حجةً علىٰ العباد إلىٰ يوم الدين ، مصدِّقةً لرسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم؛ لكانت تلك الحجة غير موثقة ولا مضمونة ولا مصونة ، بل يدخلها الدخيل ، وتتسرَّب إليها الأباطيل والأَضاليل ، إذاً فأيُّ حجة له صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وأيُّ بينة له باقية بعده ، تَثْبُتُ بالقرآن الذي هو مُعَرَّض للتحريف والزيادة والنقص. تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً.

كلاَّ. بل صدق رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم القائل: «وإنما كان الذي أُوتيتُه وحياً أوحاه الله تعالىٰ إليَّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً».

الدليل السابع: إن القرآن العظيم هو الأصل الأصيل ، والركن الركين في الشريعة المحمدية ، المشتملة علىٰ القضايا الإيمانية ، والأحكام العملية والقولية ، والأمور التعبدية ، علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

وقد جاءت السنة الشريفة النبوية المشتملة علىٰ أقواله صلَّىٰ الله عليه وآله و سلَّم ، وعلىٰ أفعاله وتقريراته: بياناً للقضايا الإيمانية ، والأحكام العملية ، وسائر الأوامر الشرعية التي جاء بها القرآن الكريم ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقد بيَّن النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ما جاء في القرآن الكريم من العقائد الإيمانية ، وبيَّن ما جاء به أيضاً من الأحكام

والأوامر والمناهي ، والحلال والحرام ، إلىٰ ما وراء ذلك من أحكام الشريعة.

فلو جاز أن يجري علىٰ القرآن الكريم تبديل ، أو زيادة أو نقص؛ لأدَّىٰ ذلك إلىٰ وقوع الخلل والعبث في الشريعة المحمدية الواجب اتباعها ، والعمل بها إلىٰ يوم القيامة.

ولو جاز أن يجري علىٰ القرآن الكريم شيء من التحريف والتبديل ، والزيادة والنقص؛ لأدَّىٰ ذلك إلىٰ تحليل الحرام وتحريم الحلال ، والنقص من الأوامر والمناهي ، التي جاءت في القرآن الكريم.

وَيَخْرُج حينئذٍ عن كونه شرعاً حكيماً مصوناً موثوقاً ، يجب التمسك به إلىٰ يوم القيامة ، لأنه حينئذ قابل للتبديل والزيادة والنقص في كل آنٍ وزمان ، بل في كل ساعةٍ ودقيقة.

بل لو جاز علىٰ القرآن تبديل ، أو زيادة أو نقص؛ لأدَّىٰ ذلك إلىٰ وقوع الخلاف بين البيان والأصل المبيَّن ، فإنَّ البيان المحمدي الوارد في سنته الشريفة هو بيان لأصلٍ أصيل نازل من عند الله تعالىٰ وهو القرآن الكريم ، النازل عليه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، فإذا أُجريَ علىٰ القرآن تبديل أو تغيير في نصوصه ، اختلف البيان المحمدي مع الأصل القرآني الذي بيَّنه قبل أن يعتريه التغيير والتبديل والزيادة والنقص.

وهذا كله محال شرعاً وعقلاً ، وواقعاً وذوقاً وفطرةً ، فإننا نرىٰ أن النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قد أمر وأوصىٰ بالتمسك بالكتاب والسنة معاً إلىٰ يوم الدين ، وأمر العباد بإحلال الحلال وتحريم

الحرام الوارد فيها ، دون أن يحلّوا أو يحرّموا من تلقاء أنفسهم ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ الآية.

جاء في (الموطأ) عن مالك أنه بلغه ، أن النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال: «تركتُ فيكم أمرين لن تضلُّوا ما تمسكتُم بهما: كتاب الله تعالىٰ ، وسنة رسوله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم».

وروىٰ الحاكم نحو هذا في (المستدرك).

وروىٰ الإمام أحمد ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يوماً كالمودِّع فقال:

«أنا محمد النبيُّ الأميّ ـ ثلاثاً ـ ولا نبيَّ بعدي ، أُوتيتُ فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه ، وعلمت كم خزنة النار ، وحملة العرش ، وتُجُوِّز بي وعرفت وعرَّفت أمتي ، فاسمعوا وأطيعوا ما دمتُ فيكم ، فإذا ذُهِبَ بي؛ فعليكم بكتاب الله تعالىٰ: أحلُّوا حلالَهُ ، وحرِّموا حرامه».

وروىٰ الطبراني بإسناد جيد ، عن أبي شريح الخزاعي قال: خرج علينا رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فقال: «أليس تشهدون أن لا إلّه إلا الله وأني رسول الله»؟ قالوا: بلىٰ.

قال: «إنَّ هذا القرآن طرفه بيد الله ، وطرفه بأيديكم ، فتمسَّكوا به ، فإنكم لن تضلُّوا ولن تهلكوا بعده أبداً».

وروىٰ الطبراني بسند رواته ثقات ، عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم

فقال: «أطيعوني ما كنت بين أظهركم ، وعليكم بكتاب الله تعالىٰ: أحلُّوا حلاله ، وحرِّموا حرامه».

فلو جاز أن يجري علىٰ القرآن تحريف في كلمة ، أو زيادة أو نقص؛ لأدىٰ ذلك إلىٰ وقوع الخلل في هذه الشريعة المحمدية ، التي كلَّف الله تعالىٰ العباد أن يتمسّكوا بها إلىٰ يوم القيامة ، فلا بُدَّ وأن هذا القرآن محفوظ ، وأن هذه الشريعة المحمدية محفوظة باقية بتمامها إلىٰ يوم الدين ، كما قال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «تركتُكم علىٰ مثل البيضاء ، ليلُها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلاَّ هالك» رواه ابن أبي عاصم في كتاب (السنة) بإسنادٍ حسن ، ورواه غيره أيضاً بأسانيد متعددة.

* * *